أضواء على الوثائق البريطانية عن السودان بمكتبة جامعة درم البريطانية

قاسم عثمان نور

تعريف وتمهيد

الوثائق: مفردها وثيقة، وهي مشتقة من الفعل وثق ووثَّق الأمر أي أحكمه؛ والوثيق هو المحكم، ومؤنثه الوثيقة، وجمعها وثائق. أما في اللغة الإنجليزية فإن أقرب المصطلحات المقابلة للفظ العربي هو المصطلح Records، والبعض يفضِّل مصطلح Documents. وهناك عدة تعريفات أخرى للمصطلح باللغتين العربية والإنجليزية. ويمكن القول إن الوثيقة هي كل ما يمكن الاعتماد عليه في الوقوف على حقيقة معيَّنة، دون النظر للوسيط الحامل لهذه الحقيقة. وخلاصة القول، تعرَّف الوثيقة بأنها كل وسيط يقدِّم حقيقة ما أو يساعد على تأكيد أو نفي حقيقة ما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. و"الوثائق" نعني بها الوثائق المكتوبة، وهي عادة الصادرة من جهة رسمية. أما إذا كانت من فرد فلابد أن يكون موقِّعاً عليها، ويمكن أن تكون على ورقة مروَّسة أو أن يكون عليها خاتم الجهة أو توقيع الشخص المسئول.[1]

والوثائق في نظر المكتبيين كل مدوَّن أو سيط يحتوي على بيانات أو معلومات أو حقائق. ومن وجهة نظر القانونيين كل مدوَّن يثبت أو يمنح حقاً خاصاً أو عاماً؛ ومن

(١) قاسم عثمان نور، الأرشيف والوثائق الإدارية الحكومية، الخرطوم: مركز قاسم لخدمات المكتبات، ٢٠٠٦، ص ٣.

وجهة نظر الإداريين كل مدوَّن رسمي يحتوي على معلومات تنظيمية أو تنفيذية؛ ومن وجهة نظر المؤرخين كل مدوَّن يحتوي على معلومات ذات قيمة تاريخية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية. وسوف يقتصر حديثنا في هذا المقال على ما يعرف بالوثائق الإدارية والتاريخية – أي تلك المحفوظات والسجلات والوثائق والمذكرات والتقارير التي تحويها مكتبة جامعة درم الخاصة بالوثائق البريطانية عن السودان، والتي جاء معظمها من الإداريين البريطانيين الذين عملوا في خدمة حكومة السودان خلال فترة الحكم الثنائي (١٨٩٨ – ١٩٥٥م).

وتمثل الوثائق والمخطوطات والسجلات وكل تلك التسميات على اختلاف مدلولاتها اللغوية والاصطلاحية، تمثِّل تراث وحضارة وشخصية الوطن. فالأمم تستمد قوتها من تراثها وماضيها، وتراث الأمة يكسب المواطن الثقة والإعزاز بالنفس ويعطيه القدرة والدافع للتطوير والتجديد والتخطيط لمستقبل أفضل. فهذه الوثائق تمثل ذاكرة الأمة وماضيها. وهناك قول مفاده أن الأمة التي تفقد الاهتمام بوثائقها هي أمة فاقدة لذاكرتها لا محالة اليوم أو غداً، ولذا كان الاهتمام بجمع وحفظ وصيانة الوثائق بكل أشكالها وأنواعها ومسمياتها، فوظفت الموارد والأيدي والعقول البشرية والإلكترونية من أجل الحفظ والاسترجاع. والسودان من أوائل الدول العربية والأفريقية التي اهتمت بأمر وثائقها وسجلاتها منذ قيام مكتب المحفوظات التابع لوزارة الداخلية، والذي كان يشرف عليه أحد الأساتذة البريطانيين بكلية الخرطوم الجامعية، وهو المستر ب.م. هولت.[٢] ثم خلفه فيما بعد (١٩٥٥م) تلميذه الأستاذ محمد

(٢) ب. م. هولت عمل أستاذاً بكلية الخرطوم الجامعية، وتولى الإشراف على محفوظات السودان بوزارة الداخلية، حيث أسس مكتب المحفوظات. بعد تركه العمل بالسودان رجع إلى بريطانيا والتحق بجامعاتها وأصدر مجموعة من المؤلفات في تاريخ السودان وبخاصة فترة المهدية.

إبراهيم أبو سليم،[٣] وتطور المكتب من بعد ليصبح "دار الوثائق القومية". وذلك من أجل حفظ السجلات والأرشيف الحكومي، بجانب الوثائق السودانية من مخطوطات ووثائق الأرض، وبعضها يعود لعصر الدولة السنارية (١٥٥٢ – ١٨٢٠م) ومملكة دارفور (١٤٤٥ – ١٩١٦م)، ثم وثائق فترة المهدية والتي تمثل أضخم المجموعات، بجانب المجموعات لحكومات السودان خلال فترة الحكم الثنائي، ثم وثائق وسجلات الحكومات الوطنية منذ إعلان استقلال البلاد في أول يناير من عام ١٩٥٦م. فظلت دار الوثائق القومية، وفي مختلف مراحلها ومسمياتها، تقوم بوظيفتها الأساسية في حفظ تراث وحضارة السودان الورقية. فبجانب الوثائق والسجلات الحكومية، هناك مجموعات الصحف اليومية، والصور الفوتوغرافية، والمخطوطات وأوراق الأنساب، ورسائل جامعية وخرائط وغيرها من المواد المكتبية ذات الطابع التاريخي والأثري. فلذا يمكن القول إن الدار استطاعت أن تحفظ كل ذلك التراث وتحافظ على ذاكرة الأمة من الضياع. وقد تكللت الجهود بانتقال الدار إلى مبانٍ لها جديدة، والتي صممت لحفظ الوثائق بصورة علمية وتقديم خدماتها للمستفيدين بشكل أفضل. وتقدر عدد الوثائق الحالية بالدار بحوالي ثلاثين مليون وثيقة.

وثائق عن السودان بالمملكة المتحدة

تعد المملكة المتحدة (بريطانيا) أكبر وأهم مستودع للوثائق التي تختص بالسودان بالخارج، تلك المجموعات الوثائقية التي تحتفظ بها مراكز التوثيق ودور المحفوظات

(٣) الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، تخرج من كلية الخرطوم الجامعية– قسم التاريخ. وبعد تخرجه التحق بالعمل بوزارة الداخلية فعمل مع أستاذه هولت في جمع وثائق السودان. قام بتطوير العمل والانتقال بمكتب المحفوظات إلى دار الوثائق المركزية ثم دار الوثائق القومية، وظل طوال حياته المهنية مشرفاً ومنفذاً ومديراً لدار الوثائق. وضع أكثر من ٣٥ مؤلفاً كان معظمها عن المهدية: التاريخ والشخصيات والأحوال.

ومكتبات الجامعات والمتاحف وبعض المكتبات العامة في بريطانيا، ومعظمها خاص بوثائق فترة الحكم الثنائي بالسودان (١٨٩٨ – ١٩٥٥م)، والذي كانت تمثل فيه المملكة المتحدة الطرف الأقوى والمسيطر على كل المجريات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية إبان تلك الفترة في السودان، ولم يكن الطرف الثاني المصري سوى طرفاً ثانوياً. ولذا استأثرت بريطانيا بمعظم تلك الوثائق، وذلك بحكم وضعية الإداريين العاملين في خدمة حكومة السودان، والمتمثلين في الجيش والشرطة والخدمة العامة: مديري المديريات ونوابهم والمفتشين، بالإضافة إلى الوظائف الإدارية العليا: السكرتير الإداري والسكرتير القضائي والسكرتير المالي. وفي قمة هذا الجهاز، الحاكم العام ومجلسه من البريطانيين. وهناك أيضاً البريطانيون الذين كانوا يعملون في الوظائف المهنية كالصحة والزراعة والغابات والقضاء والأشغال والتعليم والمالية وغيرها.

وقد تنوَّعت واختلفت أماكن حفظ تلك الوثائق، كما اختلفت وتنوَّعت أنواع تلك الوثائق. فهي تضم المكاتبات والسجلات الرسمية لوزارة الخارجية البريطانية، ووزارة الحربية، ومجلس العموم البريطاني، ومجلس الوزراء، ومكاتبات وسجلات وتقارير ومعاهدات كل الجهات التي كانت تتعامل مع حكومة السودان أو مع قضايا السودان، والتي كانت تثار من وقت لآخر في المنظمات والمحافل الدولية. وقد خضعت كل تلك الوثائق لقانون حفظ وفتح الوثائق، والذي يتم بموجبه الإفراج عن الوثائق والسماح للباحثين بالاطلاع عليها، وكانت في البداية خمسة وسبعون عاماً ثم خفضت إلى خمسين عاماً، وأخيراً تقلصت إلى خمسة وعشرين عاماً. وبموجب ذلك القانون تم الإفراج عن كل وثائق السودان لفترة الحكم الثنائي تقريباً، وأصبحت متاحة للجميع وفقاً لقواعد ولوائح تلك المؤسسات التي تنظم عمليات الاطلاع. وقد أفاد ذلك الإفراج الكثير من الباحثين في مجال الدراسات السودانية، والذين كانوا يتقاطرون على جامعات المملكة المتحدة منذ ستينيات القرن الماضي – وبخاصة أولئك المبعوثين

من جامعة الخرطوم خلال تلك العقود، حيث أمكنهم الاطلاع على تلك الوثائق، والتي تمثل مصدراً أولياً لأبحاثهم ودراساتهم. إضافة إلى ذلك، الأساتذة والباحثون من البريطانيين وغيرهم الذين استفادوا من مجموعات تلك الوثائق في إصدار العديد من الكتب والرسائل الجامعية حول السودان معتمدين على تلك الوثائق.

ومن الأعمال المتميزة التي صدرت مستندة على تلك الذخيرة الغنية والعامرة بالمعلومات، ذلك المصنَّف الذي ظهر مؤخراً تحت عنوان "الوثائق البريطانية عن السودان ١٩٤٠- ١٩٥٦م"، تحرير الأستاذ محمود صالح عثمان صالح. وقد أُخرج هذا المصنَّف في عشرة مجلدات تحتوي على وثائق منتقاة يعود معظمها إلى ثلاثة مصادر أساسية، وهي وزارة الخارجية البريطانية، والسفارة البريطانية بالقاهرة، ومكتب الحاكم العام والسكرتير الإداري بالخرطوم. وقد قام المؤرخ البريطاني الدكتور مارتن دالي باختيار هذه المجموعة من الوثائق من كم هائل من وثائق تمثل فترة من أغنى الفترات بالوثائق الحكومية، وهي الفترة التي شهدت قيام مؤتمر الخريجين وتأسيس الأحزاب السودانية والصراع بين بريطانيا ومصر من جهة وبين الحركة الوطنية وحكومة السودان من جهة أخرى، تلك الصراعات التي أنتجت كماً وافراً من الوثائق المتنوعة. وعكف على ترجمة الوثائق مجموعة من أساتذة التاريخ من السودانيين، وكان منهم البروفيسور حسن أحمد إبراهيم والبروفيسور محمد سعيد القدال والبروفيسور فيصل عبدالرحمن علي طه والدكتورة فدوى عبد الرحمن علي طه والدكتور خالد المبارك والدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك، بالإضافة إلى البروفيسور بيتر وودورد.

وقد تميَّز هذا العمل باحتفاظه بالوثائق في لغتها الأصلية (الإنجليزية) بجانب الترجمة العربية. والجدير بالذكر أن هذا العمل وفي كل مراحله حتى طباعته وقف عليه رجل الأعمال السوداني الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، الراعي لمركز عبد

الكريم ميرغني الثقافي بأم درمان. وصرف على هذا العمل من ماله الخاص وأخذ من وقته الكثير.[٤]

مكتبة جامعة درم البريطانية ودورها في جمع الوثائق عن السودان

تعتبر جامعة درم من أعرق جامعات المملكة المتحدة، ومكتبتها واحدة من أهم المكتبات البريطانية التي اهتمت بأمر الوثائق عن السودان، وسعت لجمعها وحفظها وتصنيفها وفهرستها، حتى صارت مجموعة وثائق درم من أغنى وأضخم المجموعات الوثائقية عن السودان ببريطانيا.

وهذه الضخامة التي تميزت بها مجموعة درم لم تأت من فراغ، بل كانت ثمرة جهود بذلت من أجل استقطاب الأوراق والملفَّات والصور والخرائط التي حملها وحفظها البريطانيون الذين عملوا بالسودان منذ العام ١٨٩٩م، وفي مختلف الوظائف والأماكن. فقد أودع أولئك الإداريون والموظفون أو أبناؤهم أو أحفادهم أو أسرهم أو أصدقاؤهم أوراقهم ويومياتهم ومفكراتهم ومذكراتهم ومحفوظاتهم وملفَّاتهم بمراكز التوثيق والمكتبات الجامعية مثل مكتبة جامعة أكسفورد ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ومكتبة المتحف البريطاني. ولكن كان لمكتبة جامعة درم نصيب الأسد من تلك الوثائق التي تقاطرت على المكتبة إثر النداء الذي أطلق لمناشدة الإداريين البريطانيين وأسرهم بأن يودعوا محفوظاتهم من وثائقهم الخاصة إلى مكتبة درم، وجاءت الاستجابة بالسرعة والحماس المطلوبين من كل تلك الفئات. فتقاطرت الوثائق في شكل هبات وهدايا، حيث بلغ مجموع تلك الهبات إثر ذلك النداء

(٤) نرجو في هذا المقام أن نشيد بالجهد العظيم الذي بذله الأستاذ محمود صالح عثمان صالح حيال إنجاز هذا العمل الذي يعكس اهتمامه بتاريخ السودان، إضافة إلى حسن إدراكه لأهمية الوثيقة، لا سيما إذا تذكرنا أنه رجل أعمال في المقام الأول.

حوالي ٧١٠ (سبعمائة وعشرة) وثيقة، تفاوتت من خطاب واحد أو ملف واحد أو مقالة واحدة من صحيفة أو صورة فوتوغرافية واحدة أو تقرير واحد يتكون من صفحة واحدة أو مئات الصفحات إلى مجموعات من الحقائب والزكائب المملوءة بالملفات والسجلات ومجموعات من الصور الفوتوغرافية تعد بالمئات، والخرائط المتعددة والمتنوعة والأشكال والرسومات والصحف والمجلات والكتب باللغتين العربية والإنجليزية ووثائق أخرى من كل شكل ونوع.(٥)

الأرشيف السوداني

تحفظ مجموعات الوثائق المكوِّنة للأرشيف السوداني بمكتبة جامعة درم في قسمين: الأول بالمكتبة المركزية الواقعة على طريق (ستكتون) Stockton، والثاني في المبنى الذي يطلق عليه مكتبة القصر الأخضر (Green Palace Library).(٦)

ويشمل الأرشيف السوداني مجموعة من الوثائق والأوراق جاءت من الضباط العسكريين الذين خدموا بالجيش البريطاني منذ دخوله السودان في عام ١٨٩٨م، ثم أوراق وملفات تخص رجال الكنيسة على مختلف مذاهبهم من قساوسة ورهبان في مجالات التبشير المسيحي والتعليم والنشاط الكنسي، ثم مكاتبات وسجلات ودفاتر تخص رجال أعمال من تجار ومديري شركات، ثم ملفات ومحفوظات لموظفي الخدمة المدنية من الإداريين ومفتشي المراكز ومديري المديريات وضباط البوليس وموظفين من العاملين في الوزارات والمصالح المختلفة. وكذلك مجموعة أوراق ومحفوظات المهنيين من الأطباء والمهندسين والزراعيين وغيرهم. ومعظم تلك الوثائق صور

(٥) Forbes, L.E., "The Sudan Archive of the University of Durham". In *Middle East Studies*, ed. by B.C. Bloomfield. London, 1980, p. 49.

(٦) Durham University Library, Sudanese Studies at Durham: A Guide to Resources. Durham: University Library, 1980.

وأصول من وثائق وأوراق رسمية لمكاتبات وتقارير، بجانب الأوراق الشخصية والخاصة بالمذكرات والمفكرات والخطابات الشخصية.

وفي هذه المجموعة مذكرات ووثائق تختص بالفترة الزمنية (١٨٨٣ – ١٩١٦م)، وتشتمل على ملاحظات وآراء وتقارير عن الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة الزمنية. وتضم هذه المجموعة حوالي ثلاثمائة وثيقة عن الثورة المهدية باللغة العربية، ومجموعة أوراق السير ونجت، ومجموعة جميس روبرتسون، بجانب حوالي مائتي مجموعة تخص بريطانيين معظمهم من رجال الخدمة المدنية (مديرين – مفتشين – قضاة – مهنيين). وهذه المجموعة محفوظة في حوالي ٦٥٠ (ستمائة وخمسين) صندوقاً – إضافة إلى ما يزيد عن خمسة آلاف صورة فوتوغرافية – توثق للحياة السودانية في الكثير من جوانبها الإنسانية والعمرانية والاقتصادية. وتشتمل أيضاً على أفلام وتقارير وأوراق. وقد عكف على هذه المجموعة وقام بإعداد فهارسها وتصنيفها مجموعة من الموظفين والمكتبيين والأساتذة، نذكر منهم: الدكتور ريتشارد هَلْ، وهو أحد الإداريين الذين عملوا بحكومة السودان في مصلحة السكة حديد ثم انتقل للتدريس بكلية غردون التذكارية. وبعد عودته لبريطانيا التحق بالعمل بجامعة درم وأشرف على إعداد وإصدار تلك الفهارس، كما وضع عدداً من الأعمال والأبحاث والكتب في مجال الدراسات السودانية. ولعل من أهم أعماله، "الببليوغرافية السودانية من أقدم العصور إلى عام ١٩٣٧م"، بجانب إصداره لفهرس مجموعة ونجت، تلك المجموعة التي تعتز بها جامعة درم.(٧) وفيما يلي نقدم عرضاً موجزاً لمحتويات تلك المجموعات من وثائق ومحفوظات.

(٧) Durham University, Sudan Archives: Catalogue (8): The Papers of General Sir Reginald Wingate (1861- 1853). Durham University Library.

(أ) مجموعة الجنرال سير ريجالند ونجت (١٨١٦ - ١٩٥٣م)

كانت أعظم هدية تلقتها المكتبة، مجموعة السير ريجالند ونجت - حاكم عام السودان (١٨٩٩- ١٩١٧م)، والتي قدمها ابنه للمكتبة بعد وفاة والده. وهي مجموعة تميزت بثرائها وتنوعها الوثائقي وتعدد أشكاله وأنواعه ومحتوياته. ولذا اعتبرت من أغنى وأميز محفوظات المكتبة من مجموعات السودان. ومن محتوياتها المميزة، كتاباته في المجالات والموضوعات التالية:-

- المواصلات: تحتوي على عشرة ملفات عن سكك حديد السودان من فترة بداياتها منذ عام ١٩٠٥ إلى ١٩٢٧م، ومجموعات من الأوراق الرسمية والتقارير السنوية لمدير عام السكة حديد للأعوام (١٩١٤ - ١٩٣٢م) مصحوبة بصور فوتوغرافية نادرة ومتنوعة. كذلك تقارير وملفات ومكاتبات عن النقل النهري (الوابورات) والجرارات العاملة في ذلك الوقت: حمولتها وتاريخ صنعها وجدول سيرها وأدائها طوال تلك الأعوام، وتقارير عن الطرق البرية في معظم أنحاء السودان (معلومات وخرائط ورسومات بيانية وتقارير)، ثم مصلحة البوسته: والتلغراف المباني والأعمال والأداء، ومرفق المياه بالعاصمة الخرطوم: أدائه وأعماله ومنشآته وخطط تطويره. وتضم أيضاً تقارير وخطط لتطوير العاصمة (المدن الثلاث: الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان) خلال الفترة ١٩١٦ - ١٩٣٦م والخطة الشاملة التي وضعها المستر سرسيفيلد هول - مدير الخرطوم للأعوام (١٩٢٩ - ١٩٣٦م) والنهضة والتطور العمراني للمدينة، والذي تجسده مجموعة الصور الفوتوغرافية لمباني الوزارات والمصالح الحكومية. بالإضافة إلى صور للحياة العامة في السودان في ذلك الوقت.[٨]

(٨) Cory, E.S.B. & L.B. Forbes, "Resource for Sudanese Studies: The Sudan Archive of University of Durham". In: *African Research and Documentation*, Vol. 31, 1983.

– تقارير النزاعات القبلية: وهي تقارير متنوعة تحتوي على النزاعات القبلية في المراعي وموارد المياه ومناطق الزراعة، تغطي معظم أراضي مديريتي دارفور وكردفان، والتي اتسمت منذ ذلك الوقت بالنزاعات ما بين المزارعين والرعاة. بالإضافة إلى تقارير متفرقة لنزاعات قبلية لمناطق السودان المختلفة.

– تقارير الحدود: تحتوي هذه المجموعة على تقرير مهم للغاية عن الحدود السودانية الأثيوبية والحدود السودانية اليوغندية. والتقرير من وضع المهندس هـ.هـ. كيلي، مدير مصلحة الأشغال العمومية (١٩٠٣– ١٩١٣م).

– تقارير ومحاضرات وسجلات قضائية تشتمل على مجموعة ملفات تحوي مسودات وقوانين وأوامر قضائية وتقارير للمحكمة العليا والهيئة القضائية خلال الفترة (١٩٤٥ – ١٩٥٣م).

– تقارير ووثائق متنوعة غطت الموضوعات التالية: الزراعة والري والتجارة والمالية والمشاريع الزراعية ومشروع الجزيرة (١٩٢٥ – ١٩٥٣م) ومسودات وتقارير لمناقشة اتفاقية مياه النيل ما بين بريطانيا ومصر. تحتوي هذه المجموعة أيضاً على تقارير في مجالات التعليم والصحة والجيولوجيا والطقس والنبات والثروة الحيوانية. ومعظم وثائق تلك المجموعة نسخ أصلية سليمة تميزت بالثراء الواسع والتنوع العريض لموضوعات وأنواع الوثائق، وأمدت الباحثين وما زالت تمدهم بمعلومات أساسية أولية عن أحوال السودان في خلال فترة الحكم الثنائي منذ بداياته وحتى منتصف العشرينيات من القرن الماضي، وذلك بحكم وضعية السير ونجت في أعلى السلطة كحاكم عام للسودان حتى عام ١٩١٧م.[٩]

(٩) *Ibid.*

(ب) مجموعة السير رودلف البارون سلاطين باشا النمساوي (١٨٥٧ - ١٩٣٢م)

ارتبط سلاطين باشا بالعمل بالسودان منذ عام ١٨٧٨م حتى عام ١٩١٤م، حيث انتهت خدمته بنشوب الحرب العالمية الأولى وانضمام النمسا لدول المحور (ألمانيا/ إيطاليا)، مما اضطره للاستقالة عن العمل. وقد أمضى سلاطين أحد عشر عاماً في الأسر بأم درمان إثر قيام الثورة المهدية إلى أن أعلن إسلامه وظل ملازماً للخليفة عبد الله، والذي أطلق عليه اسم عبد القادر. ثم هرب إلى مصر وعاد مع الجيوش الغازية وقدم تقارير وافية لمخابرات الجيش والقيادة البريطانية ساعدت في سقوط الدولة المهدية. وبعد عودته عمل في وظيفة مفتش عام خلال الفترة (١٩٠٠- ١٩١٤م)، وتنقل في معظم أنحاء السودان، وقد كان ملماً باللغة العربية وله معرفة واسعة بالقبائل وزعمائها وأحوال السودان قاطبة. واكتسب كل ذلك نتيجة لوجوده بالقرب من مجلس الخليفة عبد الله وتظاهره بالإسلام، مما أدى إلى إطلاق سراحه والتنقل بحرية في أم درمان، ولم يخضع للسجن والاعتقال مثل غيره من الأسرى الأجانب أمثال الأب أورهارد وإبراهيم فوزي. وقد وضع كتاباً بعنوان "السيف والنار" باللغة الإنجليزية، ترجم إلى اللغة العربية والعديد من اللغات الأوربية، فيه سرد قصة حياته بالسودان وتاريخ المهدية. وتعتبر مجموعة سلاطين أيضاً من المجموعات المتميزة، لما تحوي من تنوع وثراء في الوثائق.

(ج) مجموعة البريقدير جنرال السير جلبرت كلايتون (١٨٧٥ - ١٩٢٩م)، الذي تولى وظيفة السكرتير الشخصي للجنرال ونجت (١٩٠٨ - ١٩١٤م)، ثم تولى بعد ذلك وظيفة مدير المخابرات البريطانية بالقاهرة (١٩١٤- ١٩١٧م).

(د) مجموعة السير هارولد ماكمايكل (١٨٨٢ - ١٩٦٩م)

التحق ماكمايكل بالعمل بحكومة السودان في وظيفة مساعد مفتش منذ عام ١٩٠٥م، وتنقل وتدرج في الوظائف الإدارية للعمل في مراكز المديريات المختلفة حتى تولى وظيفة السكرتير الإداري (١٩٢٦ - ١٩٣٤م). ويعتبر ماكمايكل واحداً من أميز البريطانيين الذين عملوا بالسودان، حيث بنى علاقات واسعة مع زعماء القبائل والموظفين الوطنيين. ووضع كتاباً جامعاً تحت عنوان "تاريخ العرب في السودان" (جزءين)، بجانب كتاب آخر عن قبائل كردفان. وقد تميزت مجموعته أيضاً بالثراء والتنوع، وبالأخص مخطوطاتها باللغة العربية.

(هـ) مجموعة السير جيمس روبرتسون (١٨٩٩- ١٩٨٦م)

التحق روبرتسون بالعمل بحكومة السودان في سلك الوظائف الإدارية متدرجاً فيها من وظيفة مساعد مفتش إلى مفتش مركز ومدير مديرية حتى تولى منصب نائب السكرتير الإداري (١٩٤٢ - ١٩٤٥م)، ثم أصبح السكرتير الإداري لحكومة السودان خلال الفترة (١٩٤٥ - ١٩٥٣م) خلفاً للمستر ماكمايكل. وقد شهدت فترته بزوغ وتأسيس الأحزاب السياسية السودانية والدعوة لتقرير المصير والصراع بين مؤتمر الخريجين وحكومة السودان. فكانت مجموعته من المجموعات القيمة والثرة، وخاصة المذكرات المتبادلة مع مؤتمر الخريجين، والتقارير والمذكرات الخاصة بقيام الأحزاب ورجالاتها.

(و) مجموعة ويلز، س.أ. (١٨٨١م)

عمل مديراً للمخابرات خلال الفترة (١٩٢٠- ١٩٢٦م) كما عمل مديراً لمديرية أعالي النيل (١٩٢٦- ١٩٣١م).

(ز) مجموعة هـ.س. جاكسون (١٨٨٣- ١٩٦٣م)[١٠]

عمل بالسلك الإداري بحكومة السودان حتى وصل وظيفة مدير مديرية. ومن مؤلفاته الشهيرة عن السودان كتابه عن "مملكة سنار" أو "سن النار" (Tooth of Fire).

(ك) مجموعة وثائق عن كلية غردون التذكارية (١٩٠٣ - ١٩٤٧م)

وصارت تعرف فيما بعد بكلية الخرطوم الجامعية، وعند استقلال السودان في عام ١٩٥٦م أصبحت جامعة الخرطوم. فقد ضمت أوراقها قوائم الهبات والتبرعات التي قدمها أفراد من الشعب البريطاني استجابة للنداء الذي أطلق عقب مقتل الجنرال غردون بالخرطوم على أيدي ثوار المهدية.

(م) مجموعة الإداريين البريطانيين:

- مجموعة أوراق وملفات وصور وخرائط تحوي وثائق لبعض الإداريين البريطانيين الذين عملوا بحكومة السودان أمثال: س. بولتن (١٩٢٨م)، وأ.د.م. دسني (١٩٣١- ١٩٣٥م)، ور.س. مايال (١٩٣٤- ١٩٣٦م)، وت.ر.هـ. أوين (١٩٣٦- ١٩٣٨م)، وك.د.د. هندرسون (١٩٣٨- ١٩٤٤م).

- مجموعة أوراق ومقتنيات قري وماكدونالد، وكلاهما من إداريي حكومة السودان، من المجموعات التي أضيفت مؤخراً (١٩٩٢م). وتم إيداع المجموعتين من قبل أسرة الفريقين بعد وفاتهما. وتتميز هذه المجموعة باحتوائها على وثائق تتناول الفترة الزمنية (١٨٠٤- ١٨٣٣م)، والتي تختص بحكم محمد علي باشا وإبراهيم باشا والسياسة البريطانية نحو مصر والسودان. ثم تقارير وأوراق عن الفترة (١٨٨٢ - ١٨٨٨م)

(١٠) Durham University, *Sudan Papers*, ed. by J.R. Hogan. Durham, 1906, Vol. 1.

عن غردون والثورة المهدية والدفاع عن سواكن أيام إندلاع الثورة المهدية. بجانب ذلك تضم مجموعة من الصور الفوتوغرافية (أسود/أبيض) قوامها حوالي ستين صورة (نادرة) التقطت في عام (١٩٠٣م) في النيل الأبيض (مناطق السدود) بالقرب من مدينة بور الحالية لمجموعات من الأشخاص من قبائل الشلك والدينكا. هذا إضافة إلى مناظر طبيعية لأشجار وطيور وحيوانات.(١١)

(ن) **مجموعة متنوعة**، وتشمل:

- صور فوتوغرافية تضم لقطات لوقائع معركة كرري (أم درمان)، ولقطات لافتتاح ميناء بورتسودان - والسكة حديد - ولقطات لمجموعات قبلية، وحوالي خمسمائة خريطة لمواقع ومحطات سودانية مختلفة. كما توجد أعلام ورايات من مخلفات الثورة المهدية، ومشغولات وأناتيك من العاج والخشب والفضة، ومصنوعات جلدية، ومشغولات ذهبية وفضية لحلي متنوعة، ومصنوعات قطنية لملابس وقطع متنوعة، وعملات معدنية وذهبية، ومعدات حربية كالسيوف والحراب والدروع والخناجر وبنادق ومسدسات وطبول.

- مجموعة صكوك غردون بالخرطوم إبان فترة حصار الخرطوم في فترة الثورة المهدية يعود تاريخها إلى (١٨٨٤ - ١٨٨٥م).(١٢)

(ح) **مجموعة أوراق الخديوي عباس الثاني (١٨٧٤ - ١٩٤٤م)**، الذي تولى الخديوية في مصر خلال الفترة (١٨٩٢ - ١٩١٤م). وقد أودع مجموعة أوراقه ووثائقه حفيده

(١١) Durham University Library, Sudan Archives Lists (A- Z).

(١٢) FORBES, L.E., The Sudan Archive as Resource for Study of Modernization in the Sudan: Essays of Richard Hill, ed. by M.W. Daly, New York, 1985, pp. 117 - 161.

الأمير عباس حلمي. وهي مجموعة ضخمة ومتنوعة، وتعطي صورة واضحة للحياة والمواقف والسلطة والحكم في مصر لتلك الفترة. ولكن ما يهم أن نشير إليه هنا، بعض المخطوطات الخاصة بالسودان. فهي تضم مخطوطة كتاب عن الإمام محمد المهدي بقلم إسماعيل عبد القادر الكردفاني (أحد مؤرخي المهدية)، ويعتقد أنها النسخة الأصلية الوحيدة بخط المؤلف. وأيضاً مخطوطته الثانية عن الحرب الحبشية السودانية التي نشبت أيام المهدية، والتي تحمل عنوان "الطراز المنقوش في قتل يوحنا ملك الحبوش"، وهي من تأليف إسماعيل بن عبد القادر الكردفاني.(١٣) وقد حوت هذه المجموعة مخطوطة أخرى مهمة، وهي مخطوطة العوام عن العلاقة ما بين الثورة العرابية والثورة المهدية.(١٤) وتضم هذه المجموعة أيضاً صوراً لخطابات من الإمام محمد أحمد المهدي والخليفة عبد الله والشريف حسين بمكة، إضافة إلى ما يزيد عن الأربعمائة وثيقة باللغة العربية في مجال الدراسات السودانية، وجميعها تعتبر في غاية الأهمية.(١٥)

(ط) مجموعات في موضوعات بعينها، من أهمها:

– مجموعة علم الأجناس، وهي عبارة عن تقارير وصور عن قبائل السودان النيلية وبعض القبائل العربية وقبائل جبال النوبة، وصور أخرى متفرقة. وتمثل هذه المجموعة وحدة غنية لدراسات علم الأجناس بالسودان.

(١٣) تم نشر المخطوطة بعنوان "الطراز المنقوش بقتل يوحنا ملك الحبوش"، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم والدكتور محمد سعيد القدال، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٥.

(١٤) صدرت في كتاب بعنوان نصيحة العوام للعام والخاص، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، الخرطوم، (ب ن).

(١٥) FORBES, L.E., *op.cit.*, pp. 53- 54.

– أوراق فارقسون في الأبحاث الزراعية في السودان، وتشمل تقارير وخرائط عن أوضاع النباتات والأشجار وأنواعها ومسمياتها.

– خريطة للعاصمة المثلثة (الخرطوم – الخرطوم بحري – أم درمان) يعود تاريخها إلى عام ١٩٠٥م، وهي خريطة نادرة.

– تقارير وأوراق في أبحاث النبات والأمراض والطب والصحة العامة والآثار، وفي بعض الموضوعات الاجتماعية كأوضاع المرأة.

– مطبوعات وتقارير البعثات التبشيرية.

– مجموعة المجلة القضائية (١٩٥٠ – ١٩٥٥م).

– مجموعة غازيتة حكومة السودان (١٨٩٩ – ١٩٥٥م)، وهي مجموعة كاملة منذ العدد الأول لصدور الغازيتة والتي تحتوي على القوانين والأوامر المؤقته والتشريعات، وتصدر بصفة دورية (شهرية) حتى يومنا هذا.

– مجموعة الميزانية (١٩٠٠ – ١٩٥٥م) وهي مجموعة كاملة منذ صدور المجلد الأول من الميزانية التي تصدر عن مصلحة المالية في ذلك الوقت.

– تقارير معمل ولكم الصحي، وتمثل هذه المجموعة ذخيرة علمية في مجال الصحة الوقائية والعلاجية وأمراض المناطق الحارة. فهي من المجموعات المتميزة.

– مطبوعات السكة حديد: بجانب التقارير تضم مجموعة قوائم مواعيد القطارات والمحطات التي تتوقف فيها بكل الخطوط الممتدة في ذلك الوقت.

– نسخ من صحيفة غردون، والتي كانت تصدر بالخرطوم (١٨٨٤ – ١٨٨٥م) إبان حصار قوات الثورة المهدية للخرطوم.

– مجموعة مجلة الغرفة التجارية (مجلة غرفة السودان التجارية، ١٩٠٨ – ١٩٥٥م).

– مجموعة تقارير المخابرات من رقم ١ إلى رقم ٦٠ تغطي الفترة (١٨٩٢ – ١٨٩٨م)، وهي من المجموعات النادرة، وتوجد في شكل مجلدات (٦٠ مجلداً). هذا إلى جانب مجموعة تقارير مجلس الحاكم العام.

– التقارير الإدارية والمالية لحكومة السودان (١٩٠٠ – ١٩٥٥م)، وتشمل التقارير السنوية التي يكتبها مديرو المديريات عن أحوال مديرياتهم لأوضاع البلاد كافة.

– تقرير عن مشروع جونقلي: الفكرة والتخطيط والجدوى.

– مجموعة أدلة ومراشد حكومية لمصالح ووحدات مختلفة، ومن بينها المرشد الطبي الذي صدر عام (١٩٠٥م).

– مجموعة صور فوتوغرافية عن حياة البقارة أهداها أيان كنسون (مؤلف كتاب "عرب البقارة في السودان" والذي صدر باللغة الإنجليزية في سبعينيات القرن المنصرم).

– مجموعة الخرائط الطبيعية، صدر بعضها في عام (١٧٨٥م)، وهي مجموعة لطبعات أصلية نادرة.

– مجموعة مراشد وأدلة للسائحين والمسافرين، أحدها من وضع بدج، نشر في عام ١٩٠٧م.

– مجموعة كتب ومؤلفات وطبعات نادرة كتبها مؤرخون ورحالة، منهم: جيمس بروس (١٧٩٠م)، وج. براون (١٧٩٩م)، وجون لويس بوركهارد (١٨١٩م)، ود. ريتشارد ليبسيوس (١٨٥٣م)، وإدورد روبل (١٨٢٩م)، وفردناند ويدن (١٨٥٢م)، وجونكر (١٨٩٠م).

– مجموعة رسائل أكاديمية: وهي مجموعات من الرسائل الجامعية (ماجستير– دكتوراة)، والتي أعدها باحثون في موضوع السودان بعدد من الجامعات البريطانية، وبعضها من إعداد باحثين سودانيين.

التنظيم والفهرسة والتصنيف

من الأساتذة والشخصيات التي ساهمت في التصنيف والفهرسة والإعلام والتعريف بتلك المجموعات، وردت أسماء كل من: ت.و. تكر – عميد مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درم، والدكتور ريتشارد هَلْ صاحب المصنفات في الدراسات السودانية، وك.د. هندرسون– أحد الإداريين الذين عملوا بخدمة حكومة السودان، وله أيضاً مؤلفات في الشأن السوداني، ومسز فوربس– أمينة المكتبة بمكتبة جامعة درم والمسئولة (سابقاً) عن مجموعات السودان، والتي أشرفت على التنظيم وإعداد وإصدار مجموعة من المراشد والأدلة، بجانب كتاباتها لعدد من الأوراق العلمية التي نشرت بالمجلات المتخصصة أو شاركت بها في المؤتمرات والندوات الخاصة بوثائق السودان.

كذلك أسهم كل من الدكتور مارتن دالي (والذي أصدر قائمة ببليوغرافية مشروحة لمصادر تاريخ السودان) والبروفسير جي اسبولدينق (المؤرخ الأمريكي صاحب المساهمات في الدراسات السودانية) والدكتور بيتر وودورد (المؤلف والكاتب والمتحدث عن أحوال السودان)، أسهموا في عملية تنظيم الوثائق المعنية وفهرستها وتصنيفها.

من أين وكيف جاءت هذه الوثائق؟

عندما يشاهد الزائر ذلك الكم الهائل من الملفات التي تحويها تلك المكتبات التي تحتفظ بوثائق السودان، أو عندما يطالع الأدلة والمراشد والفهارس والأوراق التي حصرت وتناولت تلك المجموعات الضخمة والمتنوعة يتبادر إلى الذهن سؤال: كيف أمكن للإداريين والموظفين البريطانيين والذين زاد عددهم عن الأربعمائة، الحصول على تلك الملفات والأوراق ثم حملها معهم إلى وطنهم بعد نهاية خدمتهم مع حكومة السودان؟ وهل يحق لهم حمل الملفات الرسمية الحكومية معهم؟!!

غير أن الإجابة تتمثل في أن تلك الملفات والتقارير، والتي تشكل الغالبية العظمى من حجم تلك الوثائق، ما هي إلا صور من مكاتبات أو ملفات موازية للملفات الرسمية لحكومة السودان، خاصة إذا علمنا أن معظم الإداريين والمهنيين والموظفين البريطانيين قد درجوا على الاحتفاظ بصورة من أي خطاب أو تقرير يقومون بتحريره في ملفات خاصة. والشاهد على ذلك أن معظم محتويات الملفات عبارة عن صور بالكربون أو تقارير أعيدت كتابتها. ولكن ما زالت الصور الأصلية والملفات الأصلية موجودة ضمن محفوظات دار الوثائق القومية بالخرطوم. ولم تضم أي من تلك المجموعات ملفات أو تقارير رسمية تخص حكومة السودان.

وفي الختام نشير إلى الدليل المختصر الذي أعدته جامعة درم لوثائق السودان (Summary Guide to the Sudan Archives)، والذي نشر في طبعته الأولى في عام ١٩٩١م،[١٦] والذي يقدم وصفاً وشرحاً لمجموعات الوثائق السودانية في أسطر قليلة تعطي الباحث فكرة عن محتويات كل مجموعة.

(١٦) Durham University Library, Archives and Special Collections list of unpublished hand and guide, 1991, p. 5.